التحولات الثقافية والأنساق المضمرة: نماذج مختارة من شعر أبي نواس

Cultural Transformations and Implicit Patterns: Selected Examples from the Poetry of Abu Nuwas

أ. **محمد جعفر محمد العبيدات:** طالب ماجستير في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية، جامعة الإسراء، الأردن.

المشرف/ د. فاروق أحمد تركي الهزايمة: أستاذ النقد الأدبي، قسم اللغة العربية، جامعة الإسراء، الأردن.

***Mr. Mohammad Ja'far Mohammad Alobaidat**: MA Student in Arabic Language and Literature, Department of Arabic Language, Al-Isra University, Jordan.*

Email: mohamadobadit12@icloud.com

*Supervisor: **Dr. Farouk ahmed turki Al-Hazaimeh**: PhD of Literary Criticism, Department of Arabic Language, Al-Isra University, Jordan.*

Email: faroq.alhazimah@iu.edu.jo

DOI https://doi.org/10.56989/benkj.v6i6.1941

تاريخ الاستلام: 2026-03-18 تاريخ القبول: 2026-04-13 تاريخ النشر 2026-06-01

المُلخص:

هدفت الدراسة إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة (الدينية، والاجتماعية، والسياسية) الكامنة في شعر أبي نواس، وكيف استطاع النص الشعري تمرير هذه الأنساق وتجسيد صراع القيم في عصره، حيث قام الباحث بتحليل ثقافي مُستفيض يهدف إلى إيضاح تلك الأنساق، وتفكيك شيفراتها المضمرة داخل البناء الشعري، وقد تم تطبيق هذا الإجراء على عينة مختارة من ديوان أبي نواس، بلغت اثنتي عشرة قصيدة، واتبعت الدراسة المنهج التحليلي والوصفي، إضافة إلى الثقافي؛ لإتمام خطة سيرها، وتحقيق أهدافها، وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، أبرزها: تتداخل الأنساق الثلاثة (الدينية والاجتماعية والسياسية) في تشكيل الرؤية الكلية للعالم وتوجيه السلوك الشعري لدى أبي نواس، كما كشفت الدراسة عن فاعلية النقد الثقافي في استنطاق الأنساق المضمرة خلف البنية الجمالية واللغوية الظاهرة للنص، ورصد الباحث تحول الأنا الشاعرة من نسق التمرد والمواجهة في مرحلة الخمريات، إلى نسق الرجوع والانسجام مع الفطرة في الزهديات، وأوصي الباحث بضرورة تطبيق منهج النقد الثقافي على دواوين شعراء آخرين من طبقة المحدثين في العصر العباسي؛ لرصد مدى تقاطع أو تباين الأنساق الثقافية في البيئة الحضرية الواحدة.

الكلمات المفتاحية: أبو نواس، التحولات الثقافية، الأنساق المضمرة، شعر العصر العباسي الأول، الخمرة (الخمريات)، المجون والزهد، تفكيك الثنائيات، التناص والتراث الشعري، الهوية الثقافية، التجاوز والتمرد على المألوف.

Abstract:

This study aimed to uncover the implicit cultural patterns (religious, social, and political) inherent in Abu Nuwas's poetry, and how the poetic text was able to convey these patterns and embody the conflict of values in his era. The researcher conducted a comprehensive cultural analysis aimed at clarifying these patterns and deciphering their implicit codes within the poetic structure. This procedure was applied to a purposive sample selected from Abu Nuwas's Diwan, amounting to twelve poems. The study followed the analytical and descriptive method, in addition to the cultural method. To complete its research plan and achieve its objectives, the study reached several conclusions, most notably: the three systems (religious, social, and political) intertwine in shaping Abu Nuwas's overall worldview and guiding his poetic behavior. The study also revealed the effectiveness of cultural criticism in eliciting the implicit systems behind the apparent aesthetic and linguistic structure of the text. The researcher observed the transformation of the poetic voice from a system of rebellion and confrontation in the wine poems to a system of return and harmony with nature in the ascetic poems. The researcher recommended applying the methodology of cultural criticism to the collected works of other poets from the modernist school of the Abbasid era to observe the extent of the intersection or divergence of cultural systems within a single urban environment.

Keywords: Abu Nuwas, cultural transformations, implicit patterns, poetry of the early Abbasid era, wine poetry (khamriyyat), hedonism and asceticism, deconstruction of binaries, intertextuality and poetic heritage, cultural identity, transgression and rebellion against the conventional.

المقدمة:

شهدت الدراسات النقدية المعاصرة تحولاً جوهرياً من الانشغال بجماليات النص الأدبي وأطره البلاغية، إلى النقد الثقافي الذي يسعى للكشف عن الأنساق المضمرة، والقوى الثقافية التي تُشكل الوعي الجمعي، فلم يعد النص في ظل هذا المنظور مجرد بنية لسانية معزولة، أو لوحة فنية للتمتع الجمالي، بل أصبح وثيقة ثقافية تعكس صراعات القوى، وتكشف عن الأنساق الراسخة التي تحرك الخطاب من الداخل[1].

ويتناول كثير من النقاد النقد الثقافي والتحولات الثقافية، حيث يذهب بعضهم مثل كولر إلى الربط بين البنيوية والنقد الثقافي حيث إن الأخير يتصل بالأولى من جهة معالجة الثقافة مندمجة مع الأولى، ويذهب بعضهم فيربط نشأته بالماركسية الإنجليزية، وثمة آراء كثيرة في ذلك، لكن ما يهم أن النقد انتقل إلى الاشتغال على الخطاب الثقافي توسعًا في دراسة النصوص، بحثًا عما فيها من أنساق مضمرة ودلالات عميقة[2].

ويبرز أبو نواس بوصفه ظاهرة ثقافية، ونقطة تحول كبرى في مسار الوعي العربي خلال العصر العباسي، فقد تجسد في شعره الصدام العنيف بين نسق البداوة الموروث، والنسق الحضاري، مما جعل نتاجه الشعري مخزناً للأنساق المتصارعة التي تعيد صياغة علاقة الفرد بمجتمعه، وسلطته، ودينه؛ لذا فإن قراءة أبي نواس ثقافياً تعني البحث في كيفية استيعاب النص الشعري لتحولات العصر، وتمثيله لهوية متشظية بين الانتماء للتراث والرغبة في التحديث[3].

وقد تناول الدارسون النقد الثقافي من جهات عدة، لكنه ما زال بحاجة إلى المزيد من الدراسة حيث إنه لا زال عليه كثير من الغموض، ومن هنا جاءت الدراسة الحالية؛ لكشف الأنساق السياسية والاجتماعية والدينية التي مررها أبو نواس عبر نصوصه الشعرية.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

نظراً إلى أن معظم القراءات النقدية السائدة لشعر أبي نواس قد اكتفت بالجانب الوصفي للمجون، أو الزندقة، أو ركزت في غالبها على الأطر الجمالية والبلاغية التقليدية، مما أدى إلى تغييب الأبعاد العميقة التي تُخفي وراءها تحولات ثقافية كبرى وأنساقاً مضمرة، تبرز هنا المشكلة بوضوح في وجود فجوة معرفية تتعلق بكيفية اشتغال هذه الأنساق داخل النص الشعري، ومدى قدرة

[1] الغذامي، عبد الله. (2000). النقد الثقافي قراءة في الأنماط الثقافية العربية. الرباط: المركز الثقافي العربي.

[2] بوغديري، دليلة. (2020). الأنساق الثقافيّة بين النظرية والتطبيق من منظور عبد الله الغذامي (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

[3] أبو زيد، علي إبراهيم. (2000). بنية القصيدة في شعر أبي نواس. القاهرة: دار المعارف.

منهج النقد الثقافي على استنطاق المسكوت عنه في نتاج شاعر مثل أبي نواس، يعد علم من أعلام العصر العباسي.

تحاول الدراسة الإجابة على الأسئلة الآتية:

1. ما الأنساق الدينية الكامنة في شعر أبي نواس؟
2. ما الأنساق الاجتماعية الكامنة في شعر أبي نواس؟
3. ما الأنساق السياسية الكامنة في شعر أبي نواس؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة (الدينية، والاجتماعية، والسياسية) الكامنة في شعر أبي نواس، وكيف استطاع أبو نواس تمرير هذه الأنساق، وتجسيد صراع القيم في عصره.

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة من الرغبة الجادة في كشف النظرية النقدية الثقافية بكل أبعادها وتجلياتها، ومحاولة الوقوف على ظروف نشأة هذا النقد، والوقوف على مرتكزاته والتطبيق على شعر أبي نواس، كما تسعى إلى إثراء المكتبة العربية بدراسة جادة لموضوع طريف وجديد.

الدراسات السابقة:

تناول كثير من الدارسين النقد الثقافي من كافة زواياه وجوانبه، فقد جاءت جهودهم البحثية من خلال الكتب النقدية والرسائل الجامعية والأبحاث العلمية، ونجد في المكتبة العربية والغربية كثيرًا من هذه الدراسات، ولا يسعفنا المقام ذكرها بل سنعمد إلى اختيار عدد منها، ومن ذلك:

- أطروحة دكتوراة الباحث: هشام زغلول عبد الفتاح (2022)؛ تناولت الأثر الذي أوجده النقد الثقافي في قراءة الخطابات الشعرية القديمة وفق الرؤية النسقية، والكيفية التي انتهجها النقاد العرب في قراءاتهم الثقافية. وقد أفادت الرسالة من خلال وضوح الرؤية النسقية في قصائد (أبي نواس) في الجانب التطبيقي.
- رسالة ماجستير الباحثة إيمان صديق محمد (2022)؛ تناولت تعريف النقد الثقافي من خلال تحليل النصوص النقدية المحدثة في مصر، والتركيز على كيفية قراءة النقاد للنصوص بوصفها أنماطاً ثقافية توضح البنى الفكرية للمجتمع. وقد استفادت هذه الدراسة في تكوين إطار منهجي للسير عليه في توظيف النقد الثقافي في النصوص الشعرية، وفاعلية أدوات الخطاب في كشف الأبعاد الثقافية في النصوص والخطابات.

- رسالة ماجستير الباحثة: حوراء مهدي جعفر اللامي (2024)؛ بحثت في الأنساق الثقافية المضمرة في الخطابات الأدبية، والشعر العراقي المعاصر، وبيان وجوه الاختلاف بين النقد الثقافي، والنقد الأدبي التقليدي. وقد أفادت الدراسة من الرسالة كمرجع لآلية البحث في الاتجاه النسقي الثقافي في كشف المضمَر في النصوص الأدبية.
- رسالة ماجستير الباحثة: مريم محمد خلف (2024)؛ تناولت الحديث عن الأنساق الثقافية في الخطابات الأدبية من خلال منجز الناقد: عبد العظيم السلطاني، ومدى تأثير المدلولات الثقافية، والصورية، ورسوخها في المجتمع. وقد أثرت الرسالة موضوع الدراسة في الجانب التطبيقي، والبحث في المضمَر من الأنساق الثقافية في النصوص الشعرية.

منهج الدراسة:

هنا اتخذت الدراسة من المنهج التحليلي الوصفي، إضافة إلى الثقافي منهجًا لإتمام خطة سيرها، وتحقيق أهدافها.

تمهيد:

قبل البدء في تحليل الأنساق الثقافية المضمرة في شعر أبو نواس، لا بد من ضرورة التأصيل المعرفي للأنساق الثقافية قبل الدخول في التحليل التطبيقي، بأن يتوقف عند المحطات النظرية التي يرتكز عليها هذا الفصل؛ وذلك بإتاحة مساحة كافية لتعريف الأنساق الثقافية وبيان طبيعتها المضمرة، مع تصنيف أنواعها المختلفة وتوضيح الوظائف التي تؤديها داخل الخطاب الشعري؛ بهدف ضبط المفاهيم الإجرائية، وتمهيد الطريق أمام عملية التفكيك التحليلي لقصائد أبي نواس، بما يضمن دقة استكشاف البنى الثقافية العميقة التي توجه المعنى خلف الصورة الشعرية الظاهرة.

مفهوم الأنساق الثقافية:

تعددت المقاربات النقدية التي حاولت تأطير هذا المفهوم، ومن التعريفات التي توضح ماهيته ما يأتي:

يرى الغذامي أن النسق هو فاعل ثقافي له القدرة على التخفي، وهو لا يقول كلمته بشكل مباشر، بل يتسلل عبر الجمالي والبلاغي ليفرز دلالاته[1].

والنسق هو العلاقة، أو الظاهرة المتولدة المستمرة في رحمها، ذات البعد الثقافي، الذي يجل على كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق، والقانون والعُرف، وغير ذلك من

[1] الغذامي، مصدر سابق، ص76.

الامكانيات، أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع، والنسق الثقافي هو السائد أو المنتظم الثقافي في مكان معين، بمواضعه الاجتماعية، والدينية، والأخلاقية[1].

كما يُعرف النسق الثقافي بأنه: دلالة مضمرة، ليست مصنوعة من المؤلف، ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير من كُتّاب وقراء، أي أن النسق لا يصنعه المؤلف أو الملتقي، وإنما يحضر رغماً عنهما بسبب الثقافية، ويحتاج النسق إلى بصيرة نقدية قادرة على اكتشافه، وإعادة وضعه في سياقه الصحيح، وعدم تحميله بدلالات هدمية، من شأنها تقويض الجماليات والشعريات التي تشكل النص من أجلها[2].

والأنساق الثقافية: هي أنساق تاريخية أزلية ولها الغلبة دائمًا، وعلامتها اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق، وقد يكون ذلك في الأغاني أو في الأزياء أو الحكايات والأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات والنكت، فهي أنساق قديمة، والعلامة الخاصة بها مردها إلى توجه الجمهور نحو استهلاك منتوج الثقافة والأغاني الشعبية والأمثلة والألغاز والأحاجي ونحو ذلك.[3]

بناءً على ما تقدم من تعريفات، يخلص الباحث إلى تعريف الأنساق الثقافية إجرائياً في هذه الدراسة بوصفها: الأبنية المضمرة والموجهات غير الواعية التي تتخفى خلف جماليات النص الشعري عند أبي نواس، لتشكل نظاماً معرفياً يحرك دلالات المسكوت عنه؛ وتتجلى هذه الأنساق في ثلاثة محاور رئيسية هي: الأنساق الدينية، والأنساق الاجتماعية، والأنساق السياسية.

أنواع الأنساق الثقافية ووظائفها:

للأنساق الثقافية عدة أنواع تعتمد على البنية التقاطبية، مثل الأنساق المضمرة والصريحة، والأنساق الثابتة والمتحولة، لكل منها وظيفة مختلفة:

- الأنساق الصريحة والظاهرة: هي المعنى المباشر أو القصدية التي يسعى الأديب لإيصالها، ويُعرف بالنسق الجمالي، ووظيفته: يعمل كقناع، أو غلاف للنص، حيث ينشغل القارئ بجمال اللغة وبراعة الاستعارة، وهو ما تسميه الدراسات النقدية القديمة بالنص الأدبي[4].

[1] الشمس، خالد حوير. (2020). النسق الثقافي وأثره في بناء النص النثري الصوفي. عمان: مركز الكتاب الأكاديمي، ص15.

[2] الرواجفة، ليث سعد. (2025). شعرية النسق الروائي تمثلات الأنساق الثقافية في هوامش السرد المعتمة. عمان: دار الآن ناشرون وموزعون. ص8.

[3] الغذامي، مصدر سابق، ص79.

[4] لوصيف، عثمان. (2023). الأنساق الثقافية (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

- الأنساق المضمرة: هو نسق لا وظيفي من الناحية الجمالية، لكنه ذو وظيفة نسقية فاعلة من الناحية الثقافية، وليست المضمرات من إنتاج المؤلف، بل هي من إنتاج المتلقي والمجتمع، وليست كل المضمرات مقصودة في إنتاجها، لأنها تكون كامنة في اللاوعي، وظيفتها تمرير القيم بطريقة خفية تجعل القارئ يتقبلها دون نقد، لأن جمال النص الصريح يخدّر الوعي النقدي لديه[1].

- الأنساق الثابتة: هي الأنساق المترسخة والمتجذرة في أذهان أفراد المجتمع، لا تستطيع أقوى العوامل اجتثاثها رغم تعاقب الأجيال، لأنها مرتبطة بالجانب العقائدي والأخلاقي للأفراد والأعراف، وهي ليست من صنع خيال المؤلف، إنما موروث جماعي راسخ، ووظيفة الأنساق الثابتة هي ضبط الإيقاع الاجتماعي والفكري؛ فهي تمنح الإنسان شعوراً بالأمان والانتماء عبر تكرار النماذج المألوفة، لكنها في المقابل قد تغلف العقل داخل أطر جاهزة تمنعه من التمرد أو الابتكار الحقيقي[2].

- الأنساق المتحولة والمتجددة: هي الأنساق التي تنشأ نتيجة حدوث تحول وكسر في الأنساق الثابتة، فهي لا تكرر الماضي حرفياً، بل تعيد إنتاج القيم الثقافية بصورة تتلاءم مع المتغيرات الجديدة (سياسية، اجتماعية، أو فكرية)، ووظيفتها هي تمثيل قدرة الثقافة على التجدد؛ فبينما يميل النسق الثابت إلى الركود، يميل النسق المتحول إلى المغايرة، ومحاولة تأسيس وعي جديد، وهو ما يظهر بوضوح في حركات التجديد الشعري[3].

إن الأنساق الثقافية هي الحقل الخصب للنقد الثقافي الذي يسعى جاهداً لكشف واستخراج الأنساق المضمرة متمثلة في حمولات ثقافية ومعرفية، تمثل مجموعة من الترسبات تتكون عبر البيئة الثقافية والحضارية، وتتقن الاختفاء تحت عباءة النصوص المختلفة تمارس على الأفراد سلطة من نوع خاص، وهي حاضرة في فلتات الألسن والأقلام بصورة آلية، وينجذب نحوها المتلقون دونما شعور منهم، لأنها أصبحت تشكل جزءًا هامًا من بيئتهم الذهنية والثقافية[4].

[1] ثابت، طارق (2018). النسق الشعري وبنياته: منطلقات التأسيس المعرفي والتوظيف المنهجي، عمان: مركز الكتاب الأكاديمي. ص23.

[2] رقاب، كريمة (2022). أثر الأنساق الثقافية الثابتة في تشكيل شخصية الروائية. مجلة إشكالات في اللغة والأدب. مج11، ع2، ص292-312.

[3] زلاط، زهرة (2022). وعي الذات الفاعلة في ترميم الأنساق الثقافية، مجلة دراسات معاصرة، مج7، ع1، ص715-723.

[4] بن قريط، عبدالجليل (2025). الأنساق الثقافية في الشعر. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة عبدالحفيظ بوالصوف لميلة، الجزائر.

وبناءً على ما تقدم من تأصيل نظري ومنهجي، ينتقل الباحث الآن إلى البدء في تفكيك قصائد العينة وإيجاد مكوناتها الثقافية، للكشف عن الأنساق الكامنة خلف البناء الجمالي لنصوص أبي نواس.

المبحث الأول: الأنساق الدينية

الدين من أهم الركائز التي تشكل شخصية الإنسان في المجتمع وتفرض وجودها عليه، وهي سمة يتحلى بها بنو البشر كلاً حسب معتقده، وهو نسق يجمع مختلف صنوف العبادات، وتوظيف النسق الديني لا يقوم على تقديم أنموذج مماثل أو مشابه لما هو مقدس وإنما لتقدم تصور حضاري مرتبط بسياق فكري معين، فهي ثقافة واعتقاد تؤمن بها أمة وتقدسه ذات قيم ومعتقدات دينية خاصة، وتشكل تلك الأنساق الدينية مجموعة معطيات وطقوس ومناسك وتجليات للفكرة الدينية[1].

وفي ضوء ما تقدم من ملامح عامة لهذا النسق، يشرع الباحث في تحليل الأبيات التي شكلت الرؤية الدينية في قصائد أبي نواس، كما هو موضح في الآتي:

يقول أبو نواس[2]:

وَداوِني بِالَّتي كانَت هِيَ الداءُ * قامَت بِإِبريقِها وَاللَيلُ مُعتَكِرٌ**
فَلاحَ مِن وَجهِها في البَيتِ لَألَاءُ * فَلَو مَزَجتَ بِها نوراً لَمازَجَها**
حَتّى تَوَلَّدُ أَنوارٌ وَأَضواءُ * لا تَحظُرِ العَفوَ إِن كُنتَ اِمرَأً حَرِجاً**

يظهر النص عدداً من الأنساق الدينية، وهي:

- **نسق نبذ التشدد، وتوسيع دائرة العفو وشمولية الرحمة:** ويظهر هذا في خاتمة النص، في قول أبي نواس: "لا تحظر العفو"، حيث يضمر انحيازاً لمذهب المرجئة القائل بأن المعصية لا تضر بالإيمان، في مقابل المعتزلة أو أهل الوعيد، وهو يهاجم السلطة الدينية التي تحتكر رحمة الله وتضيقها، معتبراً أن تضييق واسع المغفرة هو نوع من القصور في فهم جوهر الدين، وبذلك يطرح خطاباً يرفض الوصاية الأخلاقية على علاقة العبد بخالقه.
- **نسق تقديس المدنس:** يستخدم أبو نواس لغة صوفية ودينية لوصف الخمرة بأنها نورً لمازجها، تولد أنوارًا وأضواء، وبهذا يمنح أبو نواس الخمر صفات النورانية المطلقة وهذا النسق يرفع الخمر من مجرد سائل إلى كائن نوري يتجاوز المادة، وهو محاكاة ساخرة للغة الإشراق الديني، فالخمر هنا في وصف أبي نواس لا تُطلب لغرض السكر الحسي فقط، بل بوصفها وسيطاً

[1] لوصيف، الأنساق الثقافية، مصدر سابق.
[2] أبو نواس، الحسن بن هانئ. (1998). ديوان أبو نواس، ط2، بيروت: دار صادر، ص7.

نورانياً يمنح شاربه شعوراً بالحلول والارتقاء، وبذلك تصبح الخمر رمزاً مقدساً بديلاً يملأ الفراغ الروحي للشاعر.

- **نسق الطقس التعبدي الموازي:** وتتشكل في النص صورة طقوسية متكاملة (الليل، الإبريق، السكون) في قول أبي نواس: "والليل معتكر" و "قامت بإبريقها" توحي بأجواء الاعتكاف أو قيام الليل، لكن الشاعر ينقل هذا الطقس من الاعتكاف في المسجد ليلاً، إلى الاعتكاف في الخمارة، هذا النسق يمثل تمرداً ناعماً على الشعائر الدينية، حيث يُوجد الشاعر لنفسه محراباً بديلاً، جاعلاً من فعل الشرب طقساً تأملياً يحل محل قيام الليل في المسجد، مما يعكس رغبة في ممارسة الحرية بعيداً الأطر الدينية الواضحة.

وتتحرك هذه الأبيات في فضاء ديني متوتر، يحاول فيه أبو نواس إعادة صياغة الأفكار والعقائد المنهجية السائدة، ويلاحظ أن شخصية أبي نواس لا تكتفي بالتمرد، بل تعيد تعريف مصطلحاتها الخاصة، فتجعل من الخطيئة مركزاً للشفاء، ومن الخمارة محراباً للقداسة، ومن الذات الفردية مرجعية تسمو فوق نوائب الدهر وإرادة الجماعة.

يقول أبو نواس[1]:

يا رَبِّ إن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً * فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ**
إن كانَ لا يَرجوكَ إِلّا مُحسِنٌ * فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ**
أَدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعاً * فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ**
ما لي إِلَيكَ وَسيلَةٌ إِلا الرَجا * وَجَميلُ عَفوِكَ ثُمَّ أَنّي مُسلِمُ**

ينتقل أبو نواس من نسق العصيان والاستخفاف بالدين الإسلامي وشعائره، إلى نسق التذلل والبحث عن طوق النجاة، وتبرز في الأبيات السابقة الأنساق الدينية الآتية:

- **نسق سعة رحمة الله:** فأبي نواس هنا لا يقدم نفسه كشخص صالح، بل كعاصٍ، يعترف بأن ذنوبه عظيمة ولها حدود لأنها من فعل بشر، لكنه يواجهها بعفو الله الأعظم الذي لا حدود له، هذا النسق ينتصر لمبدأ الرجاء وحسن الظن بالله ويرفض تماماً فكرة اليأس أو القنوط من الرحمة.

- **نسق الاعتراف:** بعد أن كان أبو نواس يفتخر بالخطيئة في قصائد المجون ويجاهر بها، يُلاحظ هنا بأنه يتبنى نسقاً دينياً يسمى الافتقار لرحمة الله، وهو هنا يسقط قناع التمرد والغرور،

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص587.

ويقف موقف العبد الضعيف، المكسور، والمعترف بذنبه أمام خالقه سبحانه وتعالى، والاعتراف بالذنب في النسق الديني الإسلامي هو أول وأهم شروط التوبة الصادقة.

- **نسق الرجاء والأمل بالله:** يبرز هذا بوضوح في البيت "إِن كانَ لا يَرجوكَ إِلّا مُحسِنٌ – فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ"، فإذا كان الله لا يرحم إلا المحسنين، فمن للخطائين؟ هذا النسق يعلي من قيمة الأمل على "اليأس، هنا يقدم أبو نواس مرافعة دينية عميقة ضد الفرق المتشددة كالخوارج والمعتزلة التي تُكفّر مرتكب الكبيرة أو تخرجه من دائرة الرحمة[1]، الشاعر يؤسس لنسق ديني يجعل الذنب والخطايا مبرراً لطلب الرحمة من الله تعالى، وليس سبباً لليأس منها.
- **نسق التجريد وتوحيد الوسيلة:** يتجلى في قول أبي نواس: "ما لي إِلَيكَ وَسيلَةٌ إِلا الرَجا – وَجَميلُ عَفوِكَ ثُمَّ أَنّي مُسلِمُ"، فأبي نواس يقدم تنازلاً تاماً عن أي عمل صالح قد يشفع له، محتفظاً بالحد الأدنى والأساسي للنجاة وهو الرجاء، وحسن الظن برب العالمين.

هذه الأبيات تكشف عن وجه آخر لأبي نواس، وهو وجه الإنسان المنكسر الذي يبحث عن الخلاص والنجاة بعد المبالغة في حياة العصيان والذنوب، فقد تخلت شخصيته عن كبريائها ولغتها الآمرة، لتبدأ لغة الاستعطاف والنداء "يا رب"، إن هذا النص ليس مجرد بوح إيماني، بل هو إعادة تموضع لأبي نواس داخل المنظومة الثقافية؛ حيث يسقط كل أدواته الدفاعية (الخمر، الندمان، الفلسفة) ليقف وحيداً في مواجهة الحقيقة الكبرى، تتبدى شخصية أبي نواس في حالة من التجرد المطلق؛ إذ لم يعد يراهن على علم أو جاه أو جماعة، بل يراهن على صفة إلهية واحدة هي العفو، وبذلك، فإن أبا نواس يمارس هنا سياسة التراجع الواعي، فبعد أن اصطدم بكل الأنساق الرسمية، يعود ليلوذ بالنسق الأكثر أماناً وشمولية وهو الإسلام والرجاء وطلب العفو من الله تعالى، محولاً عجزه الشخصي إلى وسيلة للنجاة، وضارباً عرض الحائط بكل التفسيرات المتشددة التي تحاول حظر العفو أو احتكاره.

يقول أبو نواس[2]:

تَأَمَّل في نَباتِ الأَرضِ وَاُنظُر * إِلى آثارِ ما صَنَعَ المَليكُ**
عُيونٌ مِن لُجَينٍ شاخِصاتٌ * بِأَحداقٍ كَما الذَهَبِ السَبيكِ**
عَلى قُضُبِ الزَبَرجَدِ شاهِداتٌ * بِأَنَّ اللَهَ لَيسَ لَهُ شَريكُ**

الأنساق الدينية تهيمن على الأبيات الزهدية، وتتمثل في:

[1] عبد الغفار، محمد حسن. (2009). شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، ج43، ص4.

[2] القصيدة من نوادر شعر أبي نواس، ليست في ديوانه، وهي مما انفرد أبو هِفان المِهْزَمي بروايتها في كتابه أخبار أبو نواس، انظر: المهزمي، عبدالله بن أحمد بن حرب، أبو هفان، أخبار أبو نواس، ص23.

- **نسق التوحيد:** تنتهي الأبيات بقول أبو نواس: "بأن الله ليس له شريك" هذا ليس مجرد إقرار عقدي، بل هو نسق الاستدلال بالخلق على الخالق، أبي نواس هنا يتبنى فكر المتكلمين الذين يرون أن تأمل الجزئيات في الطبيعة يؤدي بالضرورة إلى وحدانية الخالق، وهو رد مضمر على أصحاب المذاهب التي كانت تشكك في التوحيد آنذاك.

- **نسق عظمة الخالق:** استخدام اسم المليك يوحي بنسق العظمة والقدرة المطلقة، وهو يتوافق مع صورة النبات الذي يظهر كأنه صناعة متقنة (سبيك، صنع)، مما يحول الطبيعة إلى محراب للعبادة، فالنباتات ليست مجرد كائنات خضراء، بل هي أدلة مادية على وجود الخالق.

يخلص الباحث إلى أن النسق الديني في هذه الأبيات تجلى في دعوة العقل للتوحيد من خلال التأمل، محولاً الطبيعة إلى محراب مادي يشهد بآثار الصنع المتقن، وهو ما يعكس رغبة أبي نواس في تمرير أنساق إيمانية تجعل من كائنات الأرض رعية مخلصة تشهد بوحدانية الحاكم الأعلى، بحثاً عن الاستقرار واليقين.

يقول أبو نواس[1]:

خَليلَيَّ بِاللهِ لا تَحفِرا * لِيَ القَبرَ إِلّا بِقُطرُبُّلِ**
خِلالَ المَعاصِرِ بَينَ الكُرومِ * وَلا تُدنِياني مِنَ السُنبُلِ**
لَعَلّيَ أَسمَعُ في حُفرَتي * إِذا عُصِرَت ضَجَّةَ الأَرجُلِ**

يصطدم أبو نواس هنا مع واحد من أشد الأنساق الدينية صرامة، وهو نسق حرمة القبر:

- **نسق القبر البديل:** في الوعي الديني، القبر هو مكان للسكينة، والرهبة، وانتظار الحساب، لكن أبي نواس يضمر نسقاً يعارض هذا تماماً؛ فهو يريد قبراً ضاجاً بصوت المعاصر، وهو يستبدل صمت الموت بضجة الأرجل فوق العنب، مما يمثل رغبة مضمرة في إلغاء وحشة القبر الدينية وتحويلها إلى أُنسٍ دنيوي مستمر.

- **نسق الخلاص عبر الخمر:** يضمر النص فكرة أن القرب من المعاصر هو الذي سيمنح الروح الراحة، وليس الدعاء أو القرب من مقابر الصالحين، وهو نوع من السخرية المبطنة من طقوس الدفن التقليدية.

يخلص الباحث إلى أن النسق الديني في هذه الأبيات تجلى في محاولة أنسنة القبر، وتحويله من مكان للرهبة الدينية إلى مكان للذة الحسية، وهذا التمرد يمثل رغبة مضمرة في إلغاء السلطة الغيبية للموت، وجعل القبر امتداداً لمذهب أبي نواس الذي عاش عليه، وتحدياً لطقوس الفناء التقليدية.

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص483.

يقول أبو نواس[1]:

إِلَهَنا ما أَعدَلَك * مَليكَ كُلِّ مَن مَلَك**
لَبَّيكَ قَد لَبَّيتُ لَك * لَبَّيكَ إِنَّ الحَمدَ لَك**
كُلُّ نَبِيٍّ وَمَلَك * وَكُلُّ مَن أَهَلَّ لَك**
سَبَّحَ أَو لَبّى فَلَك * لَبَّيكَ إِنَّ الحَمدَ لَك**
وَاللَيلَ لَمّا أَن حَلِك * وَالسابِحاتِ في الفَلَك**

هذه الأبيات هي بيان إيماني يعيد صياغة علاقة العبد بخالقه، ويُظهر عدد من الأنساق الدينية:

- **نسق التلبية الروحية:** أبو نواس هنا لا يحاكي تلبية الحجاج فحسب، بل يضمر نسقاً مفاده أن التلبية هي حالة قلبية دائمة وليست مجرد طقس مكاني، هو يعيد مركزية الله في حياته بعد أن كانت اللذة هي المركز.
- **نسق وحدة الكون في العبادة:** في ذكرأبي نواس للأنبياء، والملائكة، والليل، والنجوم السباحات في الفلك، يمرر نسقاً يرى الكون كله مسبحا، هذا يحول الإنسان من كائن متمرد إلى جزء من جوقة كونية تسير وفق نظام إلهي واحد.

تعد هذه الأبيات التي تُعرف بتلبية أبي نواس من أصدق ما كتب في الزهديات، وهي تمثل إعلاناً صريحاً للعودة إلى الفطرةالسليمة السوية، والانسجام مع الإيمان، وتتجلى شخصية أبي نواس في هذه القصيدة بوصفها شخصية عائدة بنقاء الفطرة بعد أن بلغت ذروة التصالح بعد رحلة طويلة من التيه؛ إذ يتخلى عن الأنا المتفردة لينصهر في نحن الجماعة المؤمنة، ممارساً دور الخاضع الذي لا يرى في الوجود سوى عظمة الخالق وعدله.

المبحث الثاني: الأنساق الاجتماعية

يُعد النسق الاجتماعي القانون غير المكتوب الذي يُنظم حركة الفرد داخل الجماعة، وهو الموجه الأساسي لمنظومة القيم والعادات والتقاليد التي تمنح المجتمع هويته الخاصة، وفي النقد الثقافي، تكمن أهمية هذا النسق في رصد التحولات التي تطرأ على الذهنية الاجتماعية؛ مثل الصراع بين القيم البدوية والقيم الحضرية، أو تمثلات الطبقية والجاه والذكورة، فالقصيدة ليست مجرد مرآة تعكس المجتمع، بل هي فضاء تتصارع فيه أنساق التقاليد الموروثة مع أنساق التحديث والتمرد، حيث

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص381.

يسعى الباحث من خلال هذا النسق إلى اكتشاف المسكوت عنه في علاقة الشاعر بمحيطه، وكيفية صياغة الهوية الفردية في مقابل الضغط الجمعي.

وتتجلى ملامح الأنساق الاجتماعية في قصائد أبي نواس، من خلال الأبيات الآتية:

يقول أبو نواس[1]:

مِن كَفِّ ذاتِ حِرٍ في زِيِّ ذي ذَكَرٍ * لَها مُحِبّانِ لوطِيٌّ وَزَنّاءُ**
دارَت عَلى فِتيَةٍ دانَ الزَمانُ لَهُم * فَما يُصيبُهُمُ إِلّا بِما شاؤوا**
لِتِلكَ أَبكي وَلا أَبكي لِمَنزِلَةٍ * كانَت تَحُلُّ بِها هِندٌ وَأَسماءُ**
حاشا لِدُرَّةَ أَن تُبنى الخِيامُ لَها * وَأَن تَروحَ عَلَيها الإِبلُ وَالشاءُ**

يبرز النسق الاجتماعي في الأبيات السابقة، والتي تمثل الصراع الجذري بين البداوة والحضارة، ومن الأنساق الاجتماعية التي تضمرها الأبيات:

- **نسق الاستعلاء الحضري والتمرد على الهوية الصحراوية:** يظهر بوضوح في رفض الوقوف على الأطلال في قوله: "لا أبكي لمنزلةٍ كانت تحل بها هند وأسماء"، هذا النسق يضمر احتقاراً لقيم البداوة (الخيام، الإبل، الشاء) بوصفها رموزاً للتخلف، وانتصار لمجتمع المدينة (القصور، الآنية الزجاجية، الرقة)، كرموز للترف المدني البغدادي.
- **نسق الغلاميات[2]:** في قوله "ذات حِرٍ في زي ذي ذكر"، وهنا يبرز نسق اجتماعي انتشر في العصر العباسي، وهو كسر الحدود التقليدية وتذويبها بين الذكورة والأنوثة في مجالس اللهو، مما يعكس ترفاً اجتماعياً وصل حد العبث بالهويات الظاهرة.
- **نسق السيادة الطبقية:** ويظهر في قول أبي نواس: "دارت على فتية دان الزمان لهم"، يبرز هنا نسق النخبوية والسيادة الطبقية؛ حيث يرى الشاعر وصحبته أنهم فوق نوائب الدهر، وأنهم لهم مكانة كبيرة، وهذا انعكاس لطبقة الظرفاء[3] التي تشكلت في بغداد كطبقة اجتماعية عابرة للقبائل والمنابت، وكانت ترى في نفسها أرستقراطية الذوق والجمال.

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص7.

[2] هن الجواري اللاتي كن يلبسن ملابس الرجال وشاعت هذه البدعة بين الساقيات في حانات بغداد وغيرها من مدن العراق في العصر العباسي، وقد تحدث أبي نواس عن هؤلاء الجواري بصيغة المذكر، انظر: وهبه، مجدي (1984). معجم المصطحات العربية في اللغة والأدب، ط2، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. ص266.

[3] وهم من المتساهلين في الآداب العامة والتقاليد، وكانوا يجتمعون على الشرب وقول الشعر، وكانوا يقضون أكثر لياليهم ي بيوت المجان ومحيي العبث. انظر: الزيات، أحمد حسن. (1969). مجلة الرسالة، ج766، ص6.

جسدت الأبيات الانحياز المطلق للترف المدني البغدادي واحتقار البداوة وأطلالها، موثقةً بروز طبقة الظرفاء النخبوية وظاهرة الغلاميات التي أذابت الحدود التقليدية للهويات.

يقول أبو نواس[1]:

وَلا تَسقِني سِرّاً إِذا أَمكَنَ الجَهرُ * فَلا خَيرَ في اللَذّاتِ مِن دونِها سِترُ**
فَقالت: مَنِ الطُّرّاق؟ قُلنا: عِصابة * خِفافُ الأَداوَى يُبتَغَى لَهُمُ خَمرُ**
وَلا بُدَّ أَن يَزنوا، فَقالت: أَوِ الفِدا * بِأَبلَجَ كَالدّينارِ في طَرفِهِ فَترُ**
فَقُلنا لَها: هاتيهِ، ما إِن لِمِثلِنا * فَدَيناكَ بِالأَهلينَ عَن مِثلِ ذا صَبرُ**

يوجه أبو نواس هجوماً كبيرًا على المجتمع، والأخلاق الاجتماعية السائدة في العصر العباسي، مؤسساً بذلك لمجتمع بديل بقوانين مختلفة، من خلال الآتي:

- **نسق المجاهرة:** يرفض أبو نواس منظومة الستر التي كان المجتمع العباسي يختبئ خلفها لممارسة ملذاته، هذا النسق يفضح ازدواجية المجتمع العباسي الذي كان يسامح من يخطئ سراً، لكن أبا نواس يهشم هذا القانون بقوله: "ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ"، وقوله: "فلا خير في اللذات من دونها سترُ"، النسق المضمر هنا هو دعوة أبي نواس إلى الانتقال بالمجتمع العباسي من حال إلى حال جديدة، تكون فيها المعصية مباحة، وكأنها أمر اعتيادي.
- **نسق الحانة صاحبة القة والسلطة:** تظهر الخمارة كفضاء اجتماعي واقتصادي مستقل له قوانينه، يظهر بقوله: فقالت: من الطُّرّاق؟ قلنا: عصابة– خفافُ الأداوَى يُبْتَغَى لهُم خمرُ– ولا بدّ أن يزنوا، فقالت: أو الفِدا، فالحانة تصبح هي المركز البديل للمسجد أو قصر الخليفة، ولها سيدة تدير الصفقات بحنكة.

تظهر شخصية أبي نواس هنا كصانع للتمرد؛ فهو لا يطلب اللذة فحسب، بل يشرع لها قوانينها الخاصة القائمة على المجاهرة ورفض الستر، معتبراً أن الاستتار بالخطيئة هو الهزيمة الحقيقية، إن نبرة التحدي في قوله: "ولا تسقني سراً" تعكس ذاتاً تزدري النفاق الاجتماعي وتتحلل من عقدة الذنب التقليدية، لتستبدلها بفخر الفسوق والمواجهة المفتوحة مع قوانين الجماعة.

يقول أبو نواس[2]:

لا تَبكِ لَيلى وَلا تَطرَب إِلى هِندِ * وَاِشرَب عَلى الوَردِ مِن حَمراءَ كَالوَردِ**
فَالخَمرُ ياقوتَةٌ وَالكَأسُ لُؤلُؤَةٌ * مِن كَفِّ جارِيَةٍ مَمشوقَةِ القَدِّ**

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص242.
[2] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص180.

لي نَشوَتانِ وَلِلنُدمانِ واحِدَةٌ * شَيءٌ خُصِصتُ بِهِ مِن بَينِهِم وَحدي**

ثمة حضور طاغٍ للأنساق الاجتماعية يميزها عن غيرها من الأنساق الأخرى، ويمكن القول إن الأبيات نسق اجتماعي بامتياز، وتتبدى في النص بأشكال عدة، وتحت عناوين منها:

- **نسق الصراع بين التقليد والتحضر:** حين يقول أبو نواس: "لا تبكِ ليلى ولا تطرب إلى هند"، هو لا يطلب فقط ترك أسماء قديمة، بل يطلب ترك نمط حياة، فليلى وهند يمثلان المرأة البدوية والوقوف على الأطلال، وأبو نواس هنا يعلن أن الإنسان الحضري ابن المجتمع البغدادي لم يعد ينتمي لتلك الذكريات الصحراوية، بل يستبدلهما باللذة المادية الحاضرة المتمثلة بالورد والخمر والجمال الماثل أمامه.

- **نسق الترف المادي:** استخدم أبو نواس مفردات حضارية مثل: ياقوتة، ولؤلؤة، وهذا يعكس نسقاً اجتماعياً جديداً في العصر العباسي، وهو سيميائية الثراء؛ أي العلامات التي يستخدمها الأفراد للتعبير عن مكانتهم المالية والطبقية، فالجمال لم يعد يُقاس بالناقة أو الخيمة، بل بالجواهر والأحجار الكريمة، وهو ما يعكس حياة القصور والمجتمع المخملي الذي كان يعيش فيه.

- **نسق التميز والتفرد:** يسند أبو نواس التفرد والتميز إلى نفسه، ويبدو متعالياً على غيره، فهو وحده في طبقة، وغيره في طبقة، ويبرز بوضوح في البيت الأخير بقول أبو نواس: "لي نَشوَتانِ وَلِلنُدمانِ واحِدَةٌ"، هذا النسق يؤسس لصورة الشخص النخبة الذي لا يتساوى مع العامة حتى في لحظات السكر، هو نسق اجتماعي يكسر مفهوم المساواة في الحانة، ليخلق تراتبية جديدة تقوم على شدة الحساسية والقدرة على تذوق الجمال، وليس على القبيلة أو المال.

يرى الباحث أن الأبيات السابقة تمثل انتصاراً صريحاً لقيم المدينة وبهرجها المادي على حساب القيم البدوية الموروثة، فأبو نواس لا ينتقل فقط من مرحلة الصدام مع المجتمع إلى مرحلة الاستعلاء باللذة، بل يمارس وصاية جمالية ترفض الهوية الصحراوية القديمة، ليعلن أن الإنسان الحضري هو ابن المجتمع البغدادي المترف، الذي يمتلك وعياً جمالياً نخبوياً يفرقه عن سائر البشر.

يقول أبو نواس[1]:

مِن حُبِّ شاطِرَةٍ رَمَت غَرَضاً * قَلبي فَمَن ذا قالَ لَم تُصِبِ**
وِدٌّ لِعُصبَةِ ريبَةٍ مُجُنٍ * أَعدى لِمَن عادَوا مِنَ الجَرَبِ**
شُنعُ الأَسامي مُسبِلي أُزُرٍ * حُمرٍ تَمَسُّ الأَرضَ بِالهُدُبِ**

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص77.

مُتَعَطِّفينَ عَلى خَناجِرِهِم * سُلُبٍ لِشُربِهِم مِنَ القِرَبِ**
وَإِذا هُمُ لِحَديثِهِم جَلَسوا * عَطَفوا أَكُفَّهُمُ عَلى الرُكَبِ**
وَتَقولُ طَوراً ذا فَتىً غَزِلٌ * بادي الدَماثَةِ كامِلُ الأَدَبِ**
صَبٌّ إِلى حَوراءَ يَمنَعُهُ * مِنها الحَيا وَصِيانَةُ الحَسَبِ**

تكثر الأنساق الاجتماعية في هذه الأبيات، وتكاد تكون هي الأبرز من غيرها من الأنساق وتتمحور في:

- **نسق التمرد الطبقي:** قول أبي نواس: "مِن حُبِّ شاطِرَةٍ"، و قوله: "وِدٌّ لِعُصبَةِ ريبَةٍ مُجُنٍ"، يوثق أبو نواس هنا نسقاً اجتماعياً لطبقة الشطار والعيارين[1]، وهم فئة كانت تتمرد على التقاليد الرسمية للدولة والمجتمع، وصفهم بأنهم أعدى من الجرب، وهذا يعكس نظرة المجتمع الدونية لهم، والاحترازية منهم، وأبو نواس ينتمي إليهم وجدانياً.
- **نسق ثقافة مجتمع الشطار والعيارين:** حين يتحدث عن "حُبِّ شاطرة" و"عُصبة ريبة مُجُن"، فهو يوثق وجود جماعات "الشطار والعيارون" في المجتمع العباسي، هؤلاء لهم علامات خاصة: "أُزُر حُمر تمس الأرض"، ولهم طريقة جلوس معينة "عطفوا أكفهم على الركب" هذا النسق يظهر أن المجتمع لم يكن كله منضبطاً، بل كان هناك مجتمع مهمش، له قوانينه وأوصافه.
- **نسق الازدواجية القيمية:** تتأرجح القصيدة بين صورتين للفرد، فمرة يصف الفتى بأنه ماجن ومتمرد، وأخرى بأنه أديب وحيي، هذا يعكس نسقاً اجتماعياً مضمراً وهو الارتباك القيمي؛ فالإنسان في ذلك العصر كان موزعاً بين الرغبة في الانطلاق أي المجون، وبين ضرورة الحفاظ على المظهر الاجتماعي، ممثلاً ذلك بالحسب والأدب، مما يعكس مرونة طبقية واجتماعية في بغداد.

ويرى الباحث أن أبا نواس كان بارعاً في رصد سيميائية الشارع العباسي؛ فالنسق الاجتماعي يبرز أن فئة الشطار بأزيائهم الحمراء وسلوكهم المتمرد تكشف عن وجود مجتمع موازٍ للمجتمع الرسمي، إن هذه الأبيات تقدم وصفاً اجتماعياً عميقاً يصور الحياة اليومية والصراعات الطبقية في بغداد، ممارسةً نوعاً من السيادة الجمالية التي تجمع بين فتوة الشطار، ورقة أدب المواعدة.

[1] هي جماعات هامشية ظهرت في العصر العباسي، من الفقراء والفتيان، واشتهرت بالتمرد والنهب مع الالتزام بأخلاقيات خاصة رغم لصوصيتهم، ولعبوا دوراً سياسياً كقوة شعبية ناصرت الخلفاء، وظهروا كأبطال شعبيين/ انظر طارق، قصي (2014).، العيارون والشطار في العصر العباسي، ط2، مكتبة الواعظ، ص15.

يقول أبو نواس[1]:

عُيونٌ مِن لُجَينٍ شاخِصاتٌ * بِأَحداقٍ كَما الذَهَبِ السَبيكِ**
عَلى قُضُبِ الزَبَرجَدِ شاهِداتٌ * بِأَنَّ اللهَ لَيسَ لَهُ شَريكُ**

يلاحظ في هذه الأبيات أن أبو نواس لم يتخل عن قاموسه الاجتماعي المليء بصور الثراء التي عاشها في بغداد، حتى في لحظات زهده:

- **نسق الترف الحضاري والمظهرية العباسية:** من المدهش أن أبا نواس في لحظة زهده وتأمله للطبيعة وللمظاهر الكونية، يستدعي مصطلحات الترف والحضارة لوصف النبات، فهو يصف الأزهار باللجين أي الفضة، وذهب السبائك، وزبرجد وهو نوع حجر كريم، وهذا يعكس نسقاً اجتماعياً طبقياً؛ فالعصر العباسي حضاري، كان يعظم الجمال، ويركز على عناصر الحضارة، فأبو نواس يستخدم الذهب وغيره كمفردات تدلل على ذلك.

- **نسق الجمال والثروة:** أبو نواس يصف الطبيعة بمفردات (اللجين/ الفضة)، (الذهب السبيك)، (الزبرجد)، هذا يعكس نسقاً اجتماعياً يرى أن قمة الجمال تكمن في المعادن النفيسة والجواهر، هو يرى الطبيعة كأنها قصر، ولوحة فنية مرصعة بالنفائس، مما يعكس عن الثقافة المجتمعية الأرستقراطية.

يرى الباحث أن النسق الاجتماعي يعكس ثقافة العصر العباسي التي كانت تفتن بالجواهر والذهب في وصف الطبيعة، حيث ظلت الذائقة الأرستقراطية مهيمنة على لغة أبي نواس حتى في لحظات تعبده.

المبحث الثالث: الأنساق السياسية

تجلى النسق السياسي في النص الأدبي بوصفه نظاماً للقوة، وتجسيداً لعلاقة الشاعر بالسلطة ومركز القرار، فهو النسق الذي يُعنى برصد تمثلات الاستبداد، أو الولاء، أو المعارضة، وكيفية تطويع اللغة الشعرية لتمرير رسائل سياسية مضمرة خلف أستار المدح أو الهجاء، إن هذا النسق يربط النص بموازين القوى في عصره، ويكشف عن الكيفية التي يتم بها توظيف الخطاب الرسمي، أو الالتفاف عليه؛ فالشاعر في ظل السلطة السياسية غالباً ما يمارس نوعاً من المناورة الثقافية؛ لضمان بقائه أو للتعبير عن رؤاه السياسية تجاه الخلافة والمجتمع، وهو ما يجعل من تحليل النسق السياسي رحلة في استكشاف موازين الهيمنة والمقاومة داخل المتن الشعري.

[1] القصيدة من نوادر شعر أبي نواس، ليست في ديوانه، وهي مما انفرد أبو هِفان المِهْزَمي بروايتها في كتابه أخبار أبو نواس، انظر: المهزمي، عبدالله بن أحمد بن حرب؛ أبو هفان، أخبار أبو نواس، د.ت، د.ن، ص23.

ومن الآبيات التي تتضمن الأنساق السياسية:

يقول أبو نواس[1]:

دَع عَنكَ لَومي فَإِنَّ اللَومَ إِغراءُ * وَداوِني بِالَّتي كانَت هِيَ الداءُ**
دارَت عَلى فِتيَةٍ دانَ الزَمانُ لَهُم * فَما يُصيبُهُمُ إِلّا بِما شاؤوا**
لِتِلكَ أَبكي وَلا أَبكي لِمَنزِلَةٍ * كانَت تَحُلُّ بِها هِندٌ وَأَسماءُ**
فَقُل لِمَن يَدَّعي في العِلمِ فَلسَفَةً * حَفِظتَ شَيئاً وَغابَت عَنكَ أَشياءُ**

إن السياسة في هذه الأبيات تظهر في قيود السلطة المعرفية التقليدية التي تمرد أبو نواس عليها، كما يلي:

- **نسق الثورة على الشعر**: فالقصيدة في جوهرها انقلاب سياسي على السلطة الأدبية الموروثة، إذ رفض أبو نواس البدء بالبكاء والوقوف على الأطلال، وهذا فعل سياسي أدبي، يمثل إعلان استقلال للذات المبدعة عن السلطة القديمة، ومحاولة لتأسيس سلطة شعرية جديدة تعبر عن روح العصر لا عن روح القبيلة وعاداتها القديمة.
- **نسق الصراع مع الفلاسفة**: هذا النسق يستهدف الفلاسفة والمتكلمين والتيارات العقلية التي كانت مقربة من السلطة السياسية حينها، ويمثلون الواجهة الفكرية للدولة العباسية، ويظهر عند أبو نواس بقوله: "فقل لمن يدعي في العلم فلسفة"، فهو يستهدف ويضرب بشكل مباشر غرور هذه الطبقة.
- **نسق التحرر من الرقابة والسيادة الفردية**: ويظهر ذلك في قوله: "فما يصيبهم إلا بما شاؤوا"، حيث يضمر هذا البيت نزعة سياسية تمجد الفرد القادر على مواجهة الجماعة أو الدولة، وهو فعل سياسي يعلن فيه الفرد امتلاكه لجسده وقراره، واستقلاله لذاته التي لا تخضع لنوائب الدهر أو ضغوط السلطة، بل تجد لنفسها عالمها الخاص وقوانينها الذاتية، بعيداً عن وصاية المجتمع ومؤسساته.

وتظهر في الأبيات السابقة ملامح الذات المتسلطة التي يمارس من خلالها أبي نواس نوعاً من السيادة المعرفية والوجدانية؛ إذ يبدأ نصه بأسلوب الأمر الاستعلائي "دَع"، وهو فعل يتجاوز كونه طلباً لترك العتاب، ليصبح قراراً سيادياً يرفض فيه الوصاية الخارجية، ويمارس من خلاله التسلط على الآخر، إن استخدام أفعال الأمر مثل "دَع"، و "داوِني"، و "قُل" يعكس شخصية الأنا عند أبي نواس التي لا تقبل دور المتهم أو العاصي، بل تمسك بزمام المبادرة لتملي قوانينها الخاصة.

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص7.

يقول أبو نواس[1]:

فَما العَيشُ إِلّا سَكرَةٌ بَعدَ سَكرَةٍ * فَإِن طالَ هذا عِندَهُ قَصُرَ الدَهرُ**
وَما الغَبنُ إِلّا أَن تَراني صاحِياً * وَما الغُنمُ إِلّا أَن يُتَعتِعَني السُكرُ**
وَلا خَيرَ في فَتكٍ بِدونِ مَجانَةٍ * نُجَرِّرُ أَذيالَ الفُسوقِ وَلا فَخرُ**

تبدو الأبيات خمرية بامتياز، حيث تدور أبياتها حول الخمرة وقوامها، مع ذلك فإنها تحمل تحمل دلالات سياسية مضادة، وتحمل أبعاداً تتعلق بمفهوم السلطة:

- **نسق الفتك والبطش والقوة:** ويظهر هذا النسق في قوله: "ولا خير في فتكٍ بدون مجانة"، والفتك في معناه هو الجرأة[2] والاعتداء والتمرد والخروج عن الامتثال للقانون، أبو نواس يوظف هذا النسق كفعل سياسي؛ فبينما تحتكر الدولة سلطة العقاب والقانون، يمارس أبو نواس الفتك والمجون كإعلان عن قوامته على ذاته، وعلى جسده وأفعاله، رافضاً الخضوع لسلطة الشرطة أو المحتسب.
- **نسق انعدام الوعي:** يقول أبو نواس: "فما العيش إلا سكرة بعد سكرة"، و"وما الغبن إلا أن تراني صاحياً"، هذا نسق معرفي يرى أن الواقع السياسي والاجتماعي المحيط لا يستحق المعايشة بوعي، الوعي بمعنى الصحو هو خسارة وغبن، والغياب التام عن الواقع السكر المتواصل هو المكسب والغنيمة الحقيقية، إنه هروب عدمي من استحقاقات الزمن والواقع.

وهذه الأبيات تمثل ذروة تطرف مشروع أبي نواس التمردي والتطبيق العملي للمواجهة المفتوحة مع السلطة بكل أشكالها، والفعل السياسي يكمن في تحويل السُكر من حالة غياب ذهني إلى موقف احتجاجي يرفض الواقع، ويؤكد سطوة الفرد على حقيقته الخاصة؛ رافضاً أنصاف الحلول والتواري التي تفرضها القوى المهيمنة على الفرد والمجتمع.

يقول أبو نواس[3]:

لا تَبكِ لَيلى وَلا تَطرَب إِلى هِند * وَاِشرَب عَلى الوَردِ مِن حَمراءَ كَالوَردِ**
لي نَشوَتانِ وَلِلنُدمانِ واحِدَةٌ * شَيءٌ خُصِصتُ بِهِ مِن بَينِهِم وَحدي**

يعظم أبو نواس ذاته في هذه الأبيات ويضخمها، حيث تبرز الأنا عند أبي نواس بشكل سياسي:

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص242.
[2] ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص472.
[3] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص180.

- **نسق النخبوية:** يطرح أبو نواس نفسه شخصاً فوق العادة، هذا النسق يعكس رغبته في التميز عن العامة وحتى عن الأصدقاء، سياسياً، هذا يشبه تفرد الخاصة عن الجمهور، فأبو نواس يرى نفسه يمتلك أدوات تذوق وحساسية جمالية تجعله يحصل على ضعف ما يحصل عليه الآخرون.

- **نسق السيادة والسلطة:** يمارس أبو نواس سلطة على ذائقة المتلقي، فهو الذي يقرر له ما يترك (ليلى وهند) وما يختار (الورد والخمر)، وهذا يعكس ثقة المثقف في قدرته على تغيير قناعات المجتمع وتوجيهها نحو قيم جديدة.

يظهرالنسق السياسي في الأنا المتضخمة لأبي نواس، الذي يرفض المساواة حتى مع أصدقائه، مدعياً لنفسه نشوة مضاعفة، وهذا النسق يعكس رغبته الخاصة في التميز عن الجمهور، حيث تصبح القدرة على تذوق الجمال أداة سياسية لإثبات التفرد والسيادة الذاتية.

يقول أبو نواس[1]:

مَصونَةً حَجَبوها في مُخَدَّرِها * عَنِ العُيونِ لِكِسرى صاحِبِ التاجِ**
يُديرُها خَنِثٌ في لَهوِهِ دَمِثٌ * مِن نَسلِ آذينَ ذو قِرطٍ وَدُوّاجِ**
وَالدَهرُ لَيسَ بِلاقٍ شَعبَ مُنتَظِمٍ * إِلّا رَماهُ بِتَفريقٍ وَإِزعاجِ**

هذا النص مشحون بالرموز السياسية التي تعكس صراع الهويات والتيارات في تلك الفترة:

- **نسق الشعوبية والافتخار بالتراث الفارسي:** يبرز بوضوح في قول أبي نواس: "عَنِ العُيونِ لِكِسرى صاحِبِ التاجِ"، وقوله: "مِن نَسلِ آذينَ ذو قِرطٍ وَدُوّاجِ"، هنا يستدعي أبو نواس عظمة االقومية الفارسية المنهارة ممثلة برمزها (كسرى) ويربطها بجودة الخمر وعراقتها، هذا نسق سياسي يعبر عن الاعتزاز بالهوية الفارسية، وتغلغلها في الثقافة العباسية كرمز للرقي والترف.

- **نسق جبروت الدهر وتقلب السلطة:** في البيت الأخير يقول أبو نواس: "وَالدَهرُ لَيسَ بِلاقٍ شَعبَ مُنتَظِمٍ / إِلّا رَماهُ بِتَفريقٍ وَإِزعاجِ"، هو نسق سياسي فلسفي يقر بحتمية سقوط الدول وتمزق الجماعات، وهو انعكاس للقلق السياسي الذي ساد في فترات الصراع على الخلافة .

يتجلى النسق السياسي في هذه القصيدة من خلال استحضار رمزية كسرى والتاج، كنوع من الاعتزاز بالهوية الفارسية وتحدي المركزية العربية، ويختم أبو نواس رؤيته بنبرة سوداوية تجاه الدهر الذي يفرق الشمل السياسي والاجتماعي، مما يفسر رغبته في التحرر من سطوة السلطة الرسمية واللجوء إلى سيادة الفرد المطلقة في فضاء اللذة.

[1] أبو نواس، ديوان أبو نواس، ص136.

الخاتمة:

يمكن القول إن شعر أبي نواس لم يكن مجرد تجربة جمالية أو تمرداً شعرياً عابراً، بل كان ساحة للصراع بين أنساق ثقافية مضمرة تعكس تحولات العصر العباسي بكل تعقيداته، فقد كشف التحليل في نصوصه الشعرية عن حضور لافت للأبعاد الدينية والسياسية والاجتماعية التي مررها أبو نواس بذكاء خلف قناع المجون، مما يؤكد فاعلية المنهج الثقافي في استنطاق المسكوت عنه، وتجاوز القراءات التقليدية السطحية، وبذلك، يظل أبو نواس ظاهرة حضارية تستوجب إعادة القراءة باستمرار، بوصف شعره وثيقةً تاريخية وثقافية تجسد ملامح الهوية العربية في أدق مراحل تحولها وانفتاحها.

التوصيات:

- ضرورة تطبيق منهج النقد الثقافي على دواوين شعراء آخرين من طبقة المحدثين في العصر العباسي؛ لرصد مدى تقاطع أو تباين الأنساق الثقافية في البيئة الحضرية الواحدة.
- الدعوة إلى دمج أدوات النقد الثقافي مع علوم أخرى كعلم الاجتماع التاريخي والأنثروبولوجيا، لتعميق فهم العلاقة بين النص الشعري، وبين العوامل التي أفرزت تلك الأنساق المضمرة.
- تطوير طرق تدريس الأدب العربي في الجامعات، بحيث لا تقتصر على التحليل الجمالي والبلاغي الصرف، بل تتعداه إلى قراءة النصوص بوصفها وثائق ثقافية، تعكس صراعات الهوية والسلطة والمجتمع.
- إجزاء المزيد من الدراسات المقارنة، بين الأنساق الثقافية في الشعر القديم والشعر المعاصر؛ لتتبع تحول هذه الأنساق، ومدى صمود بعضها أمام المتغيرات الحضارية عبر العصور.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو زيد، علي إبراهيم. (2000). بنية القصيدة في شعر أبي نواس. القاهرة: دار المعارف.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ. (1998). ديوان أبي نواس، ط2، بيروت: دار صادر.
- بن قريط، عبدالجليل. (2025). الأنساق الثقافية في الشعر. (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة عبدالحفيظ بوالصوف لميلة، الجزائر.
- ثابت، طارق. (2018). النسق الشعري وبنياته: منطلقات التأسيس المعرفي والتوظيف المنهجي، عمان: مركز الكتاب الأكاديمي.
- خلف، مريم محمد. (2024). الدراسات الثقافية في منجز الناقد عبد العظيم السلطاني (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة كركوك – العراق.

- دليلة، بوغديري. (2020). الأنساق الثقافيّة بين النظرية والتطبيق من منظور عبد الله الغذامي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.
- رقاب، كريمة. (2022). أثر الأنساق الثقافية الثابتة في تشكيل شخصية الروائية. مجلة إشكالات في اللغة والأدب. 11(2)، ص292-312.
- الرواجفة، ليث سعد. (2025). شعرية النسق الروائي تمثلات الأنساق الثقافية في هوامش السرد المعتمة. عمان: دار الآن ناشرون وموزعون.
- زلاط، زهرة. (2022). وعي الذات الفاعلة في ترميم الأنساق الثقافية، مجلة دراسات معاصرة، 7(1)، 715-723.
- الزيات، أحمد حسن. (2000). تاريخ الأدب العربي. ط2، دمشق: دار روائع الكتب ناشرون وموزعون.
- الشمس، خالد حوير. (2020). النسق الثقافي وأثره في بناء النص النثري الصوفي، عمان: مركز الكتاب الأكاديمي.
- الصغاني، رضي الدين الحسن بن محمد، الشوارد وما تفرد به بعض أئمة اللغة، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (1983).
- طارق، قصي، (2014). العيارون والشطار في العصر العباسي، ط2، مكتبة الواعظ.
- عبد الفتاح، هشام زغلول. (2022). مقاربات النقد الثقافي في قراءة الشعر القديم: دراسة في نقد النقد العربي المعاصر (أطروحة دكتوراه غير منشورة). جامعة القاهرة، مصر.
- الغذامي، عبد الله. (2000). النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- الغذامي، عبدالله واصطيف، عبد النبي. (2004). نقد ثقافي أم نقد أدبي. دمشق: دار الفكر.
- اللامي، حوراء مهدي. (2024). الاتجاه النسقي في النقد الأدبي العراقي الحديث (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة الكوفة – العراق.
- لوصيف، عثمان. (2023). الأنساق الثقافية، (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.
- محمد، إيمان صديق. (2022). النقد الثقافي وتحليل الخطاب لدى النقاد المعاصرين في مصر (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة قناة السويس- مصر.
- المهزمي، عبدالله بن أحمد بن حرب، أبو هفان، أخبار أبو نواس، د.ت، د.ن.
- وهبه، مجدي. (1984). معجم المصطحات العربية في اللغة ولأدب، ط2، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.